النظرة النبوية في نقد الشعر
نحو تأسيس منهج إسلامي في الأدب

الدكتور وليد قصاب

عرض: محمد طيع الحافظ

أراد المؤلف ـ كما هو واضح من عنوان الكتاب ـ أن يدرس موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا الفن الأدبي، وأن يتخذ من هذا الحديث مولجاً للحديث عن تأسيس منهج إسلامي في الأدب، والدراسات في هذا الموضوع ما زالت في أول الطريق على كثرة الدراسات الأخرى في جميع النواحي، وتعود أهمية هذا الكتاب إلى أن الدكتور وليد قصاب اعتمد فيه على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية خاصة، والأخبار الأدبية عن كبار علماء العربية. مما تطلب الرجوع إلى أمهات كتب السنة النبوية، والأجزاء الحديثية الموزعة في المكتبة العربية الإسلامية ما كان منها مطبوعاً أو مخطوطاً، وذلك للتعرف على مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر والشعراء، وهذا ما فعله المؤلف، فقد تجمعت لديه أقوال ومواقف كثيرة زادت على مئة وثلاثين.

قسَّم المؤلف كتابه إلى تمهيد وقسمين رئيسيين هما: (النبي والشعر) و(النبي والشعراء).

---

١ ـ صدر عام ١٩٨٩ عن المكتبة الحديثة بالعين

ففي التمهيد تحدث عن ناحية هامة في تطور الشعر العربي في أواخر العصر الجاهلي، وهي انحداره، وأنه أصيب بشرخ خطير أفقد الشعراء كثيراً من مكانتهم القديمة التي كانوا عليها إبان نشأته الأولى، وقد تمثل في انحراف مساره عن غاياته النبيلة التي كان عليها، وفي خروجه عن وظيفته الاجتماعية التي انتهجها، فقد كان الشاعر عظيم المنزلة، رفيع الشأن، لجلال الدور الذي يلعبه في سلم القبيلة وحربها.

وقد قوبل ارتكاس الشعراء بغضب اجتماعي تمثل في إنزال الشاعر عن القمة السامقة التي كان فوقها، ونبه المؤلف إلى ناحية هامة بقوله: هكذا سقطت هيبة الشاعر دون أن تسقط مكانة الشعر.

وهذا الأمر يقودنا إلى النظرة القرآنية إلى الشعر، لنقف على موقف القرآن الكريم، ثم موقف النبي صلى الله عليه وسلم. لقد وضعت آيات سورة الشعراء تصوراً صحيحاً للشعر، ومثلت أدق تمثيل وأروعه شعراء الانحدار، فقد قاوم القرآن الكريم الانحدار عند الشعراء، وصوب مسيرة الشعر، وأعطى الكلمة حقها، وتحدث عن عظيم سلطانها وامتداد أثرها، ودعا إلى تبني الكلمة الطيبة ورعايتها، وحذر طائفة الشعراء الذين لا يراعون أمانة هذه الكلمة، الذين يقولون كل ما يخطر ببالهم، غير عابئين بالصدق، يجعلون الحق باطلاً، والباطل حقاً، لا يصدر من أفواههم إلا الإفك والقذف والشتم وهتك الأعراض، والافتراء على عباد الله.

ثم يتابع المؤلف الحديث لينتقل إلى ناحية أخرى وهي أن القرآن الكريم لم يوجه حربه للشعر كله، أو للشعراء كافة، فالإسلام دين الوسطية والاعتدال، ولهذا فقد قسمهم إلى فريقين: مفسدين ومصلحين، كافرين ومؤمنين. فقال تعالى مستثنياً منهم الفريق الثاني: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ وقد رفع الإسلام هذا الفريق من الشعراء، وأعطاهم المنزلة العالية.

أما القسم الأول فقد سماه (النبي والشعر) ودرس فيه ما أثر عنه ـ عليه السلام ـ من أحاديث كثيرة في الشعر، وما نقل عنه من مواقف متعددة، ومن جميع ذلك يتحدد لنا موقفه من الشعر ويتمثل لنا ذلك من خلال:

١ ـ أن الشعر جزء من تكوين الأمة النفسي لا يمكن اقتلاعه، وهـذا مـا عبر عنه حديثه: «لا تـدع العـرب الشعـر حتى تـدع الإبـل الحنين». وإذا انحرف بعض الشعراء عن الجادة فهذا لا يلغي دور الشعر.

٢ ـ وقد كان الرسول الكريم يحب الكلام الحسن والشعـر الـرفيـع، ولكن حبه كان مقيداً بأن الشعر ليس هدفاً في حد ذاتـه، بـل لا بـد لـه من غاية نبيلة يسعى إليها، فقال عليه الصلاة والسـلام: «إن من الشعـر حكمة».

٣ ـ وقد أحب الرسول عليه الصلاة والسـلام أن يُحدى بـالشعـر في بعض المواطن لا سيما مواطن الحماسة والجد والفداء.

٤ ـ أراد الرسول من الشعر أن يكون وسيلة لغايات نبيلة، فإذا كان الشعر في دائرة الحق والخير فهو نشاط حيوي مقبول، لأنه ضرب من الجهاد لحرب الباطل ونشر الفضيلة.

٥ ـ استمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشعر الحسن الـذي يتضمن قيمًا نبيلة خيرة، وأعجب به وأثنى على أصحابه.

٦ ـ وهناك طائفة من الشعر سمعها الرسول عليه الصـلاة والسـلام فعلّق عليها، أو أبدى حولها ملاحظات، فقد أشاد بشعر أمية بن أبي الصلت المشرك، لأنه في دائرة الحكمة وإطار الحق.

٧ ـ واستهجن الشعر في بعض المواقف، كأن يفتخر الشاعر فخراً جاهلياً، أو يدعو إلى عصبية قبلية، فالشعـر ينبغي أن يغترف من بحـر العقيـدة، وكل ما اتفق معها فهو الحق، وكل ما جافاها أو اعتـد بقيم تتنكب لها مرفوض يحتاج إلى توجيه وتصويب.

أما فنون الشعر فكانت النظرة النبوية إليها تختلف من فن الى آخر:

فقد أجاز الرسول هجاء أصحاب الضلال والكفر وجعله واجباً مفـروضـاً، وقد أذن لشعراء المسلمين بهجاء المشركين، أما الهجاء بالمفهوم الجـاهلي فضرب من الطعن والقذف والفحش، وخاصة هجاء المسلمين وأهل الفضل والخير فقـال عليه الصلاة والسلام: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر».

أما المديح فهو جائز فيمن يستحقون من أهل الفضل والخير، فقد أذن لكعب بمدحه، وكذلك لحسان، ولكنه صلى الله عليه وسلم نهى عن مديح الظلمة والفساق وأهل الشر لما في ذلك من قلب لموازين الأمور، وقد حدد للمدح الجائز شروطاً وقواعد رسمتها بدقة متناهية السنة النبوية.

وقد يمثل الفخر أحياناً ضرباً من الغرور والعجب، ولذلك نهى عن الفخر الشخصي والقبلي الذي يدعو إلى الاستعلاء والغرور، ولكنه دعا إلى الفخر بالقيم الخيرة الفاضلة التي يشرف الفرد والمجتمع أن تتجسد فيه.

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعض الملامح الفنية المتعلقة بجماليات الكلام، كمشاكلة اللفظ للمعنى، ومراعاة المقام، والإيجاز، والصدق، وعدم الغلو...

أما القسم الثاني من هذه الدراسة فقد خصه الدكتور قصاب لموقف النبي صلى الله عليه وسلم من الشعراء.

وهذا القسم يعطي البعد النقدي المهم الذي صورته أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ومواقفه من الشعراء، فإذا كانت منزلة الشاعر قد تراجعت في أواخر العصر الجاهلي، فقد عمل الإسلام على أن يرد إليه اعتباره، فاحتضن الشعراء ورحب بهم، ولكنه جعلهم أصحاب رسالة، فمهمتهم جليلة وهي الدفاع عن المجتمع الجديد، لم يعد الشاعر يستعطي أصحاب المال، ولم يعد فاحشاً بذيئاً يخشى شره ويُتقى لسانه، ويُشترى بالمال. فالشعراء أصحاب الكلمة الشريفة مجاهدون كما وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه».

ولقد جند النبي الكريم عدداً من الشعراء، وعلى رأسهم الثلاثة الخزرجيون: حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك في الرد على شعراء الكفر والدفاع عن الإسلام والمسلمين، وقد آزر هؤلاء الثلاثة آخرون من المهاجرين والأنصار، وبذلك أعطى الفرصة للشعراء ليحملوا المسؤولية، وحظي هؤلاء الشعراء عنده صلى الله عليه وسلم، وفي صفوف المجتمع الجديد بمكانة رفيعة

جداً، فهو يؤيد حسان ويسدد خطاه، ويشعره بوقوف جبريل الى جانبه، ويعفو عن كعب بن زهير بعد أن أوعده، ويعطيه بردتـه، ويـوجـه الشعـراء ويبـارك صنيعهم، ويوضح لهم معالم الطريق الجديـدة التي سيـأخـذون فيهـا، ويـدل حسان على خبرة أبي بكر بالأنساب ليستعين به في شعره.

وبين المؤلف أن الرسول الكريم ذو حاسة نقدية متميـزة، عـارف بمكـانـة الشعراء وأقدارهم، يصدر عليهم أحكاماً في غاية الدقة.

ولعل أبرز أحكامه النقـديـة حكمـه المشهـور على امرىء القيس، فقد أقـرّ بشاعريته، وسماّه قائد الشعراء أو صاحب لواء الشعراء، إلى النار، وواضـح أن هذا الحكم هو حكم فني نقدي، أشار فيه النبي الكريم إلى المكانة الفنية العاليـة لهذا الشاعر.

وقد صنع الدكتور قصاب فهرساً للأحاديث والأخبار التي استشهد بهـا في كتابه مرتبة بحسب ورودها في الكتاب، الأمر الذي يجعل وصـول القـارىء إلى الحديث في موطن إيراده في الكتاب صعباً.

ولا بد من كلمة أخيرة، فالكتاب بهذا المنهـج المتميـز يعـد فتحـاً جـديـداً في الأدب، تفتتقر المكتبة الإسلامية والعربية إلى مثله، وعسى أن يتحفنا الـدكتـور وليد قصاب بدراسات مماثلة توضح الصورة كاملة لأدبنا الإسلامي الذي جاء الكتاب لبنة من لبناته، وحق لمثله أن يتضلع من هذا النوع من الدراسات الأدبية الإسلامية المبتكرة الأصيلة.